

التصوف الإسلامي عبر التاريخ

بقلم الأستاذ محمد قريشة

كان الزهد البذرة الأولى للتصوف الإسلامي ، فقد وجد منذ حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والصحابة رضوان الله عليهم ، وكان منطلقه من القرآن الكريم ، والسنة النبوية الشريفة في قرونه الثلاث الأولى على الأقل ثم بعد ذلك وقع دخول بعض الأفكار والتزعات الهندية والبوذية والمسيحية ووقع التمازج والتفاعل بين هذه العناصر ، حتى ظهرت للوجود صورة جديدة للتصوف في العالم الإسلامي .

كان التصوف الإسلامي في فترة صفائه اعتماده الأساسي على الكتاب والسنة حيث وردت إيات كثيرة تحث الناس على الزهد ، منها قوله تعالى « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم (1) .

فهذه الآية الكريمة تحث المؤمنين على الزهد في الدنيا بانفاق الأموال في سبيل الله حتى يكون الجزاء أوفى ، في الآخرة .

وكذلك قوله تعالى « وما الحياة الدنيا الا متاع الغرور (2) . فهذا الآية تصرفنا عن حب الدنيا التي تغرر بالانسان إذ هي زائلة ، وفانية .

(1) سورة البقرة ، الآية 261

(2) سورة آل عمران الآية 181

وجه الله تعالى الناس جميعا منذ أن خلق آدم إلى عبادة الواحد الصمد وجاء ذلك في القرآن الكريم على السنة الأنبياء مخاطبين أمهم ، قال الله تعالى « ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال ، يا قوم اعبدوا الله (3) .

وكذلك قوله تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام « وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه (4) وكذلك قال هود إلى قومه عاد (5) ، وصالح إلى قومه ثمود (6) وشعيب إلى قومه مدين (7) » . وهكذا بعث الله إلى كل أمة رسولا يدعو قومه إلى عبادة الله تعالى وحده .

فالعبادة هي الرياضة الروحية والنفسية تترع بالإنسان إلى البعد عن المادة والزهد في الحياة وتصل به أخيرا إلى التصوف الحقيقي المبني على الإيمان بالله والثقة المطلقة به .

كما وجدت في السنة الشريفة أحاديث كثيرة تدعو إلى الزهد في الحياة وإلى عبادة الله تعالى منها قول الرسول الكريم « من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله يتابع الحكمة من قلبه على لسانه (8) كان في هذا دعوة صريحة إلى الزهد في الحياة حتى تنفجر الحكمة على لسان الزاهد لأنه أصبح ينظر للأشياء بعين الحقيقة .

وكذلك روي عن نبينا محمد وعن المسيح عليهما السلام ، أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت وهو أول العبادة ، والتواضع ، وكثرة الذكر ، وقلة الشيء . وهذا هو الزهد في الحياة ، فالصوفي لا يملك شيئا في الحياة ولا يملكه .

فهذه الأحاديث الشريفة دلّت على مكانة الزهد في السنة الركن الثاني الذي دعانا الرسول الكريم للتمسك به حتى لا نضل في الحياة ففي

(3) سورة المؤمنين الآية 23

(4) سورة العنكبوت ، الآية 16

(5) سورة هود ، الآية 50

(6) سورة هود الآية 61

(7) سورة هود الآية 84

(8) حديث رواه أبو نعيم في الحلية

هذه الأحاديث التوجيه السديد والارشاد الحسن للايمان بالله والتخلي
بالأخلاق السّمتحة والزّهد في كلّ مجالات الحياة وهو الطريق الصحيح
لنشدان الفضيلة والخير والحقيقة .

— وقبل الحديث عن زهد أبي مدين ونصوّفه وهو الهدف الأساسي
من هذا الموضوع فلا بأس من تسليط بعض الأضواء على التصوف الاسلامي
بصفة عامة وتطوّره حتى تتضح لنا مسيرة التصوف ومواكبته للحياة الفكرية
في المجتمع الاسلامي عبر القرون .

— ان الباحث المتبع لتاريخ التصوف الاسلامي ، يستطيع تقسيم هذا
التاريخ الصوفي على أربع فترات زمانية .

1 الفترة الأولى :

تمسح المدة الزمانية للقرون الثلاثة الأولى من تاريخ الاسلام الهجري
وهي الفترة التي ندعوها بفترة الصراع من أجل البقاء ، فقد كان التصوف
خلال هذه الفترة يصارع كل التيارات الفكرية المعارضة والمنافسة له ،
ويبحث عن حقه في الوجود ويسعى جاهداً لمدّ نفوذه على كامل الحياة
الاجتماعية فقد كان عنصر الزهد سائداً بين أصحاب الرسول صلى الله عليه
وسلم ممثلاً في الصوم والاعتكاف ، وقيام الليل والتفكير ، حتى أصبح
الزهد أكثر قوة عندهم وخاصة في القرنين الاولين .

وقام الزهاد في هذه الفترة بدور الوعاظ في المجتمع الاسلامي ففي
البصرة وجدت جماعة الوعاظ القصاص من هؤلاء الزهاد كما نجد من
بينهم مقرئي القرآن الذين يحثون الناس على التوبة والزهد والعبادة وأعظم
الشخصيات التي ظهرت في هذه الفترة وكان لها التأثير الكبير على التصوف
الاسلامي وتعتبر حلقة وصل بين الزهد والتصوف ، هي شخصية الحسن
البصري المتوفى سنة (110 هـ / 728 م) الذي يعدّ بحق أحد البناة الأوائل

لصرح التصوف الاسلامي (10) يقوم مذهبه في الزهد والتصوف على الشعور باحتقار الدنيا ونبذ لذائذ الحياة ، ويحث تلاميذه على الورع والزهد والخوف من الله بأمثال أوامره واجتناب نواهيه .

وهكذا سار تلاميذه من بعده على منهجه وطريقته ، وتكون من هؤلاء التلاميذ جماعة من الزهاد والنسك عاشوا جميعا في عبادان قرب البصرة من العراق وكان من ضمن هذه المجموعة شخصية اشتهرت بحبها الالهي عند جميع الصوفية ووصفها لوى ماسينيون (Louis Massignon) بأنها (أكبر قديسة في تاريخ أولياء السنة) .

تلك الشخصية هي رابعة العدوية المتوفاة سنة (185 هـ / 801 م) كانت أمة تعزف على الناي ، وبقيت عازقة عن الزواج طول حياتها التي تجاوزت الثمانين سنة ، وهي متعلقة بالحب الالهي ، وقد عبرت عن هذا الحب في هذه الأبيات المشهورة التي بثت فيها لواعج هذا الحب الالهي الكبير :

أحبك حبيب ، حب الهوى	وحب لأنك أهل لذاكا
فأما الذي هو حب الهوى	فشغلي بذكرك عما سواكا
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك للحجب حتى أراكا
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي	ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ثم بعد ذلك أصبحت مدرسة بغداد مركز الكثيرين من المتمسكين بطريقة السلف وتعاطف الأدباء مع الصوفية فظهرت مجموعة من القصص والحكايات تدور كلها حول فضائل الصوفية ومناقب المتصوفين .

وكان من أشهر شخصيات هذه المدرسة الصوفية ، شخصية الحارث المحاسبي المتوفي سنة (243 هـ / 857 م) الذي اشتهر بمحاسبة النفس ،

(10) قيل إن أول من حمل اسم صوفي هو : أبو هاشم الصوفي الكوفي ، الزاهد من قدماء زهاد بغداد ، انظر البيان والتبيين للجاحظ ، ج 1 ، ص 366

ومراعاة حقوق الله الواجبة على الانسان ، يستطيع القاريء الوقوف على ارائه الصوفية من خلال مطالعته لكتابه المعروف (بالرعاية لحقوق الله تعالى) ، ثم كذلك شخصية الجنيد المتوفى سنة (298 هـ / 911 م) الذي يعتبر من أشهر أعضاء هذه المدرسة وشيخ مذهب التصوف ، تأثر بأفكار وارهء المحاسبي وهو أول من تكلم في علم التوحيد في بغداد ، وكانت اراؤه معتدلة ، فمدحه متكلمو الاشاعرة لذلك . ثم نجد بعد ذلك شخصية الحلاج الذي قتل سنة (309 هـ / 922 م) والذي يعتبر فيلسوفا صوفيا من الغلاة ، وهو من أصل فارسي رفضته مدرسة بغداد بسبب غلوه ونظره في ارائه الصوفية ، وخاصة في تصوّره للاتحاد والحلول وأفكاره عن الرسالة التي تنطبق في رأيه على كل لسان ، لهذه المجموعة من الآراء رفضته كل الأوساط الصوفية منها والفقهية وكذلك السياسة وأدين وسجن ثم حوكم وقتل سنة 309 هجرية .

الفترة الثانية :

امتازت هذه الفترة بمحاولة التوفيق بين التصوف وخصومه ، وكان انتصار التصوف في هذه الفترة على يد الامام الغزالي الرجل العبقري الذي ظهر في القرن الخامس الهجري وصاحب كتاب الأحياء الذي كان له المكانة الممتازة بين كتب التصوف وكان ولا زال جميع العلماء مقبلين بحماس منقطع النظر على قراءة صفحات هذا الكتاب فقد تتلمذ الغزالي على كتب المحاسبي والمكي والجنيد — كما تتلمذ أبو مدين على كتاب الرعاية للمحاسبي — واستطاع الغزالي بذكائه وفطنته أن يجعل التصوف جزءا من الدين مقبولا لدى جميع العلماء ، ولدى أصحاب النفوذ والحل والعقد في المجتمع الاسلامي ، كما قضى على الشكوك التي كانت تحوم حول التصوف وخاصة عند علماء الشريعة ، وهذا العمل الفكري الصوفي الديني يعدّ مساهمة كبرى قدمها الغزالي للمجتمع الاسلامي ، في فترة كان هذا المجتمع في حاجة إلى هذا العطاء الفكري ، لقد مرّ الغزالي بمرحلة شك في حياته ولكن هذا الشك لم يمس جوهر ايمانه بالله تعالى ، بل شك فقط في قدراته العقلية على الوصول إلى الحقيقة ، وأخيرا وجد الاطمئنان

والسكينة في طريق التصوف (11) . كما شهدت هذه الفترة ازدهارا المؤلفات الاسلامية في التصوف ، مثل مؤلفات السراج المتوفي سنة (378 هـ / 988 م) وخاصة كتابه المشهور (اللمع في التصوف) ، والكلايازي المتوفي سنة (380 هـ / 990 م) بكتابه (التعرف لمذهب أهل التصوف) ، وأبي طالب المكي المتوفي سنة (386 هـ / 996 م) بكتابه (قوت القلوب) ، والقشيري المتوفي سنة (465 هـ / 1072 م) بكتابه (الرسالة القشيرية) .

وضعت في هذه الفترة الملامح المميّزة ، والخطوط الحريضة للمذهب الصوفي مثل القول بنظرية المنازل والمقامات والأحوال . فالصوفي عندما يسلك هذا الطريق لا بدّ أن يمرّ بثلاثة مقامات أساسية : مقام الطالب ، ومقام السالك ، ومقام المريد ولا يرتقي الصوفي إلى مقام أعلى الا بعد مروره بالمقام السابق ، وقد ذكر أبو نصر السراج سبعة من هذه المقامات وهي : (التوبة والورع والتوكل والزهد والفقر والصبر والرضا) . (12)

وقطع هذه المراحل لا تكون إلا بإشراف شيخ روجيه يرشد الطالب إلى طريق القوم ويراعي في ذلك مزاج الطالب ، ونزعاته النفسية ، حتى يروضه على الصمت والصوم والتواضع وعلى كل الرياضيات الصوفية حتى يفتح له طريق القوم وينتظم في سلك الصوفية .

وكل هذه المقامات ينالها الصوفي بالمجهود الشخصي والاكتساب الذاتي ، بخلاف الأحوال فهي مواهب من الله تعالى يعطيها لمن يشاء من عباده الصالحين .

وقد ذكر السراج في كتابه (اللمع) عشرة من هذه الأحوال وهي (المراقبة والقرب والمحبة ، والخوف ، والرجاء ، والشوق ، والأنس ، والاطمئنان ، والمجاهدة واليقين) (14) .

(11) المنقذ من الغلال

(12) انظر اللمع ، ، بداية من صفحة (68 - 81)

(14) المرجع ، ، بداية من ص (82 - 104)

الفترة الثالثة :

تميزت هذه بغزارة التأليف الصوفية وانتشارها على امتداد العالم الاسلامي مع استيعابها لكل الميول والاتجاهات الفكرية والعقائدية وانصهار جميع هذه الأفكار في بوتقة صوفية اسلامية ، وتغطي هذه الفترة القرون الثلاثة : الخامس ، والسادس ، والسابع للهجرة . وكان من أبرز المؤلفين لهذه الفترة : القشيري (ت 465 / 1072) ، وشهاب الدين السهروردي قتل (587 / 1191) وفريد العطار (ت 627 / 1229) وابن عربي (ت 638 / 1240) وعبد الكريم الجيلي (ت 809 / 1406) ، وعبد الرحمان الجامي (ت 898 / 1492) ، ومن أشهر متصوفة الهند عبد الحسن علي بخش (ت 465 / 1072) ، ومعين الدين شيستي (ت 632 / 1234) ، وفريد الدين شكر (ت 664 / 1265) ، ونظام الدين عليا (ت 725 / 1324) ، وكذلك من ناحية أخرى وجد الفيلسوف الصوفي أبو حامد الغزالي (ت 505 / 1111) وابن سينا (ت 427 / 1036) وابن الفارض الشاعر الصوفي المشهور (ت 632 / 1234) ، وكذلك عبد الله الانصاري (ت 481 / 1089) صاحب كتاب منازل السائرين ، دون فيه مذهبه الصوفي .

وكان أهم هذه الدراسات الصوفية ، بعد كتاب اللمع في التصوف لأبي نصر السراج الطوسي ، كتاب (الرسالة القشيرية) ، لعبد الكريم القشيري واحياء علوم الدين للغزالي ، وعوارف المعارف لشهاب الدين السهروردي ، وكتاب منطق الطير لفريد العطار ، والفتوحات المكية ، وفصوص الحكم لابن عربي ، والانسان الكامل لعبد الكريم الجيلي ، واللمعات واللوامع للجامي ، وحلية الاولياء لأبي نعيم الاصفهاني (ت 430 / 1039) ورسائل ابن سبعين لعبد الحق بن سبعين (ت 669 / 1270) .

ويعتبر الشاعر الرومي من أشهر شعراء الصوفية المسلمين وكذلك ابن الفارض بديوانه المشهور ، وقد امتازت بعض هذه التأليف باراتها المتطرفة والخارجة عن المنهج السنّي الاسلامي . مثل القول بوحدة الوجود ، وظهور هذا الاتجاه واضحا عند الحلاج وشهاب الدين السهروردي وابن عربي ، وعبد الكريم الجيلي ، وعبد الحق بن سبعين صاحب نظرية الوحدة المطلقة .

فقد تأثر هؤلاء بفلسفات غير اسلامية كالأفلاطونية الحديثة ، والغنوصية ، وبعض الأفكار الأخرى مثل الآراء الهندوكية والبوذية والزاردشتية .

الفترة الرابعة :

هي الفترة الأخيرة التي جاءت بعد القرن السابع ، وتميزت عن بقية الفترات السابقة بتدهور التصوف وانحطاط مستواه الفكري ، والعقدي ، ففي بداية القرن الثامن نجد التصوف قد أصابه القصور والتوقف عن التطور الجديد ، واقتصر أصحابه عن شرح النصوص السابقة لهذه الفترة ، فبعد الرزاق القاشاني (ت 739 هـ / 1338) شرح كتاب (فصوص الحكم) لابن عربي وكذلك عبد الكريم الجيلي صاحب النظرية (الانسان الكامل) كان متأثراً في كتابه بنظرية ابن عربي في وحدة الوجود ، وفي القرن العاشر وجد الشعراني الذي اقتفى اثار ابن عربي ونسج على منواله ، ومن هذه الكتب كتابه الذي وضعه بعنوان (الكبريت الاحمر في بيان علوم الشيخ الأكبر) .

وبابتداء من القرن العاشر الهجري ، يشهد التصوف الاسلامي بعض الطرق الدخيلة على المنهج الصوفي الاصيل المتسم ببعض الأفكار المنحرفة مثل الشعوذة والتهريج بعيدة عن المنهج الصوفي الاسلامي الذي يدعو إلى السمو الأخلاقي وصحة العقيدة ومثانة الايمان .

ومن أشهر هذه الطرق : الرفاعية ، والقادرية ، والشيخانية ، والسوسية ، والعيساوية ، والرحمانية ، والعلاوية وغيرها . (5)

كل هذه الطرق كانت لها زوايا اتخذت كمراكز ثقافية علمية تلقينية للعلوم الدينية والتصوف وهي ملتزمة بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعقدت في هذه الزوايا حلقات دراسية تصوفية وأخرى في الذكر والشطح وثالثة في الشعوذة والتهريج .

(15) انظر الحقيقة التاريخية ، الصفحات بداية من 322 والصفحات الموالية .

وحبيت هذه الزوايا البعض المريدون فاتخذوها للعيش فيها لأنها كانت موحية بالخشوع والعبادة والزهد ، كما التجأ البعض إلى هذه الزوايا كرد فعل لما شاهده هؤلاء المصلحون من انحلال اخلاقي في الأوساط الاجتماعية شرقا وغربا ، والبعد عن إقامة الشعائر الإسلامية وكذلك للاضطهادات التي عاشها المجتمع في هذه الفترة .

لقد شاهد المجتمع الإسلامي صراعات داخلية وخارجية جعلت بعض المفكرين والعلماء يزهد من الحياة ويعتكف بزوايا بلده لإقامة الشعائر الدينية والذكر والمجاهدة .

وفي القرنين : الحادي عشر والثاني عشر عمت الفوضى البلاد الإسلامية واختلط التصوف بالشعوذة وخاصة مع ظهور الدراويش الذين لا يفهمون التصوف فهما صحيحا ، فقد كانوا دجالين يسيطرون على العامة بحركاتهم الغريبة ، لكن اشتغل بعض العلماء في هذه الفترة بالتصدي لدحض هذه الخرافات والأساطير وهذا الأمر ألهاهم عن التعمق في التصوف والصعود به إلى فكر فلسفي .

فكل هذه العوامل السابقة أدت بالتصوف ، وخاصة في عصوره الأخيرة إلى النزول به إلى مستوى فكري وعقدي هزيل مخالف للتصوف الحقيقي ، وانطفأت منه اشراقه وصفاء بدايته الأولى التي وجدت مع الرسول الكريم والصحابة رضوان الله عنهم .

